

## إسماعيل صبرى

١٨٥٤ - ١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته ، وطنى بفطرته وحسن سريرته ،  
أدرك عهد الاحتلال فى إبان قوته وسطوته ، فتحررت  
شاعريته ، تجاهد الاستعمار ، وتمجد المعانى الوطنية ،  
وتخلدها فى قصائد غرّ تشبه أن تكون تغاريد من نبع  
القلب الصافى وفيض الإحساس المرهف والذوق الرفيع .  
كان شاعراً رقيقاً مجيداً ، عميق الوجدان ، مقلاً  
فى شعره ، محتاطاً فى نشر ما تجود به قريحته ، كان عالماً

من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث ، وثانيهم بعد البارودى .

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة ، والتحق بمدرسة المبتديان سنة ١٨٦٦ ، ثم بمدرستى  
التجهيزية والإدارة ( الحقوق ) ، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤ ، ثم ألحق بالبعثة المصرية  
إلى فرنسا ، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية « اكس » سنة ١٨٧٨ ، ولما عاد إلى  
مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلاً لوزارة الحقانية ( العدل ) سنة ١٨٩٩ ،  
واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧ .

ظهرت مواهبه الشعرية منذ نعومة أظفاره ، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته ، وكانت  
شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره .

كان معاصروه يلقبونه ( شيخ الشعراء ) ، واعترف له بذلك زملاؤه شوقى وحافظ  
ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم ، وإنك لتلمح تقدير شوقى لزعامتته من قوله فى رثائه :  
أيام أمرح فى غبارك ناشئاً نهج المهار على غبار خصاص<sup>(١)</sup>  
أتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قواف

(١) المهار : جمع مهرة وخصاف فرس مشهور فى العرب .

ومن قول حافظ في رثائه أيضاً :

لقد كنت أغشاه في داره وناديه فيها زها وازدهر  
وأعرض شعري على مسمع لطيف يحس نبو الوتر

تجلى في شعره القومي روح الحب الخالص للوطن ، والشجو الحزين على مآسيه ،  
والاستمسك بالعزة والكرامة ، والشتم والإباء ، ولقد عبر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه ،  
وترجم عن آمالمهم وآلامهم .

كانت وطنيته عميقة الجذور ، عاش حياته لم يزر إنجلترا قط ، ولم يذهب يوماً إلى  
الوكالة البريطانية ، في حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعطاء في ذلك العهد ،  
وطالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال ، فاستعصم  
وأبى ، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة ، قال : وماذا تفيدني رآسة الوزارة  
غير إغضاب ضميري وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه<sup>(١)</sup> .

كان صديقاً صدوقاً للزعيم مصطفى كامل ، أيده في جهاده منذ الساعة الأولى ، ولم يكن  
يكنم مناصرته إياه في أى منصب تولاه .

كان محافظاً للإسكندرية سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩ ، وأراد مصطفى كامل أن يلتقى بها  
خطبة من خطبه الوطنية الكبرى ، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذي أعد  
لإلقاء الخطبة ، بحجة المحافظة على الأمن والنظام ، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت ،  
ورخص بإقامة الاجتماع ، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام ، وألقى  
مصطفى كامل خطبته .

ولما عين وكيلاً لوزارة الحقانية ( العدل ) في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى ،  
وكان في غالب الأيام يخرج من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء  
ويقضى معه الوقت الطويل ، ولم يمنع منعه منصبه من المجاهرة بصدافته له ومناصرته إياه في الوقت  
الذي كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به ، وإلى ذلك يشير  
شوقي في رثائه لاسماعيل صبرى إذ يقول :

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ أحمد الزين في مقدمته لديوان إسماعيل صبرى ص ٣٢ .

ويُح الشباب وقد تخطر بينهم هل متعوا بتمسح وطواف؟  
لو عاش قدوتهم ورب (لوائهم) نكس (اللواء) لثابت وقاف  
فلكم سقاء الودّ حين وداده جَرَبٌ لأهل الحكم والأشراف

### دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد في شعر اسماعيل صبري انسجاماً مع سياسة مصطفى كامل وتمجيداً للوطنية  
ومناصرة للأمة في جهادها للحرية والاستقلال .

قال في قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمي الثاني يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو  
إلى الدستور :

سدد سهام الرأي (بالشورى) يحط بك منه في ظلم الحوادث فيلق  
واسبق به واضرب به وافتح به ما شئت من باب أمامك يُفلق

### حادثة دنشواي

وقال فيها يصور حادثة دنشواي ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذي أصدره  
الخديو عن مسجونيه :

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى في أهلها وقضى قضاء أخرق  
إين أن فيها بأس مما به أو رن جاوبه هناك مطوق<sup>(١)</sup>  
وارحمتا لجناتهم ماذا جنوا؟ وقضاتهم<sup>(٢)</sup> ما عاقهم أن يتقوا؟  
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا  
حتى حكمت فجاء حكك آية للناس طيّ صحيفة تتألق  
نزلت ترفرف حول كاتب نصها زمراً ملائكة الرضى وتحلق  
شكرتك مصرٌ على سلامة بعضها شكراً يغرب في الورى ويشرق  
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل ترمى إلى أمر أجل وترمق<sup>(٣)</sup>

(١) المطوق : السجين .

(٢) قضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة التي حكمت عليهم .

(٣) يريد الدستور .

قانون ( دنشاواى ) ذاك صحيفة  
هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر  
ومضاجع القوم النيام أو اهل  
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملا  
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه  
تتلى فترتاع القلوب وتحقق  
والموت حول نصوصها يتفرق ؟  
بمغذب يردى وآخر يرهق  
ما دام جارحها المهذ يبرق  
فالعلم أجمل والمكارم أليق

### رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعا شديداً ، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير ( يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ) ، ووقف على قبره يلقى قصيدته فى وداعه ، ولم يكذب يلقى البيت الأول منها وهو :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعياً هددت القوى إذقت بالأمس ناعياً  
حتى ظهر عليه التأثير الشديد والإعياء ، ولم يستطع أن يتم القصيدة ، وقد ألقاها فى حفلة تأبينه ، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته ، وإعجابه به ، وشدة حزنه عليه ، فجاءت آية فى بلاغة الرثاء ، ورقة التعبير عن الحزن والألم ، وكأن كل بيت فيها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم . قال :

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً ويرضيك فى الباكين لو كنت واعياً  
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل كما ذقت منه الحب والود صافياً  
سوى أنه يعتاده الحزن كلما رآك عن الحوض المهذد نائياً  
ويعثر فى بعض الخطوب إذا مشى إلى بعض ما يهوى فيرجع دامياً  
وإن رامه سرب المسرات لم يجد محلاً به من لاعج الهم خالياً  
ألا عللانى بالتعازى وأقنعا فؤادى أن يرضى بهن تعازياً  
وإلا أعينانى على النوح والبكا فشأنكما شأنى وما بكما بيا  
وما نافعى أن تبكيا غير أننى أحب دموع البر والمزم واقياً

\*\*\*

أيا (مصطفى) تأله نومك رابنا  
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا  
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة  
وتبكيتك لولا أن فيها بقية  
فهل ألفت ما بين جفنيك والكري

أمثلك يرضى أن ينام اللياليا ؟  
وقل ياخطيب الحى رأيك عاليا  
تحالك أعواد المنابر فانيا  
تعلمها من ذلك الصوت داويا  
مخالفة أم قد أمنت الأعاديا ؟

\*\*\*

قدناك فقدان الكى سلاحه  
وبتنا وقد باتت رقاتك فى الثرى  
ولولا تراث من أمانيك عندنا  
طواك الردا طى الكتاب تضمنت  
مضاه إذا البيض اتمت لأصولها  
ورأى يحلى اليأس واليأس ضارب  
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا  
فليتك إذ أعيت كل مساجل  
ولينك إذ ناضلت عن مصر لم تفض

وسارى الدياتجى كوكب القطب هاديا  
سقاها الحيا<sup>(١)</sup> نستبطى<sup>(١)</sup> الدمع هاميا  
كريم<sup>(١)</sup> بكينا إذ بكينا الأمانيا  
صائفه من كل فخر معانيا  
غضبنا إذا سمك قوم يمانيا  
على الأفق ليلا فاحم اللون داجيا  
ذكرناهما حتى نجد التقاضيا  
قنعت فلم تعى الطيب المداويا  
مع الخبر قلبا يعلم الله غاليا

\*\*\*

لقد ضاع إخلاص الطيب وحذقه  
ولم تنهز تلك العقاقير فرصة  
نميك سيفاً بات فى التراب مغمداً

سدى فبكى الفخر الذى كان راجيا  
ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا  
تقلده فيما مضى الحق ماضيا

### مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسى يملأ القلوب أملا وشجاعة .  
قال من قصيدة له مخاطبا الأمير عمر طوسون يشكره على مواساته لجرحى الحرب :  
وكم تعهدت لجرحى من أسود وغى إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا

مستنجدا من نبي مصرٍ إلى شمم إذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا  
مستهميا هاميا و ( النيل ) في وجل من أن تجود به أيمانكم حذر

### الوحدة بين العنصرين

وقال داعيا إلى الوحدة الوطنية بين عنصري الأمة :

عيني فيك اليوم قبطية تروى الأسي عن مسلم موجع  
ويأخذ البر وآى الوفا عن الكتاب الطيب المشرع

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى

الوحدة الوطنية :

خففوا من صياحكم ليس في مصر لأبناء مصر من أعداء  
دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمرانا بالإخاء  
مصر أتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعى الشقاء  
مصر ملك لنا إذا ما تماسكنا وإلا فصر للغرباء !

### تنديده بصنائع الاحتلال

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى حين سقطت وزارته وكان مواليا

للاحتلال خاضعاً له :

عجبت لهم قالوا سقطت ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلم  
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمت خوف الذل ما لم يحرم  
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم<sup>(١)</sup>

### في الإباء وعزة النفس

ومن قوله في الإباء وعزة النفس ، والزراية بالمتكبرين :

(١) أى أن مصطفى فهمى كان في منزلة دانية لا يؤله السقوط منها ، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر !

أيها التائه<sup>(١)</sup> المداك علينا  
لو فرشت الطريق درًا لأخطو  
أنا أغنى من أن يقال فلان  
وقال في الاستمساك بالكرامة :

لكسرة من رغيف خبز تؤدم بالملح والكرامة  
أشهى إلى الجرّ من طعام يُحتم بالشهد والملامة

### يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات :  
يا من تزوج باثنتين ألا اتئدُ أقيت نفسك ظالما في الهاوية  
ما العدل بين الضرتين بممكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانية !

### التوحيد والحرية

وله في تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعرا إلا أنها تشبهه في النغم  
والرنين وقوة الأثر ، وهي من الشعر المنشور البليغ . قال :

أحب التوحيد في ثلاثة : الله . والمبدأ . والمرأة .

وأحب الحرية في ثلاثة :

حرية المرأة في ظل زوجها

وحرية الرجل تحت راية الوطن

وحرية الوطن في ظل الله .

### تنديده بالظلم والاستعمار

قال في قصيدة له يخاطب (الدواة) :

وإذا الظلم والظلام استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا

(١) التائه : التكبر من التيه بكسر التاء .

واستعدا من الشرور مدادا فاجعليه في قسمة الظالمينا  
إلى أن قال :

وإذا كان فيك نقطة سوء كونت من خيانة تكويننا  
فاجعليها قسط الذين استباحوا في السياسات حرمة الأضعفينا!

### تنديده بالمستعمرين

قال ينعي على إيطاليا عدوانها على طرابلس ( ليبيا ) سنة ١٩١١ ويندد بما في فعلتها من  
الغدر ونقض العهود والمواثيق :

بعضَ هذا الجفاء والعدوان راقبي الله أمةَ الطليان !  
قد ملأت الفضاء غدرا وجهلا ونسمت غارب الطغيان  
وبعثت السفين ترمي طرابلس بحرب مشبوبة النيران  
تخرق البحر والمواثيق والعهدَ جهارا وذمة الجيران  
سَيَّرْتَهَا أَضْغَانِ قَوْمٍ لِقَوْمٍ سَلِمُوا مِنْ دَنَاءَةِ الْأَضْغَانِ (١)  
من رآها تجرى توهم أن القوم هموا للتأر للأوطان  
لا وربَّ الأسطول ما حمل الأسطول جيشا إلى حمى الحبشان (٢)  
إن قوم الطليان أحرص من أن يُفَضِّحُوا مَرَّتَيْنِ فِي مِيدَانِ

### الامتيازات الأجنبية

وقال في هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدول الشرقية  
للأورو بين فقايلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول :

ويحهم ما لصنعهم أبطر القوم ففقوا ما كان من إحسان ؟  
ولماذا تمخض السلم عن حرب لظاها يشوى الوجوه عوان ؟

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم في هذه الحرب .

(٢) يشير بهذا البيت والذي يليه إلى هزيمة الطليان أمام الأحباش في معركة عدوه الشهيرة سنة ١٨٩٦  
وعبرهم بالسكوت عن الأخذ بثأرهم في هذه المعركة .

منحٌ قد بذر في شر أيدٍ كُنْ مذ كُنْ منبت الكفران  
هكذا فلتك المروءات في عصر البهاليل من بني الرومان !

### القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الذمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أم  
الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتبويتها الشر تحت ستار الود والصدقة :

لا يثق بعضنا ببعض وهذا ما أعد الإنسان للإنسان  
إن تسلّم على الغريب فسلم في ظلال السيوف والمران<sup>(١)</sup>  
ربما أصبح العناق صراعا في زمان الآداب والعرفان<sup>(٢)</sup>

### التغنى بمظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بمظمة مصر ومفاخرها ، ويستحث مصر الحديثة على إحياء  
مجدها ، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء  
مجد الدولة قال :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني إذا ونى يوم تحصيل العلا واني  
إلى أن قال :

لا تقربوا ( النيل ) إن لم تعملوا عملا ردوا المجرّة كدّا دون مورده  
فماؤه العذب لم يخلق لكسلان أو فاطلبوا غيره ربّا لظمان  
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم لا تتركوا بعدكم فخرا لإنسان  
لا تتركوا مستحيلا في استحالته حتى يميظ لكم عن وجه إمكان  
مقالة هبطت من عرش قائلها على مناكب أبطال وشجعان  
مادت لها الأرض من دعر ودان لها ما في المقطم من صخر وصوان

(١) يريد بالمران الرماح أى القوة المسلحة .

(٢) في هذا البيت يتهم بالدول الأوروبية ومانتطوى عليه من الغدر ونقض العهود في عصر المدنية  
والعلوم والآداب .

بينون ما تقف الأجيال حائرة أمامه بين إعجاب وإذعان  
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت على نظائره في الكون عينان  
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل جنا تطير بأمر من ( سليمان )

\*\*\*

(أهرامهم) تلك حيّ الفن متخذاً من الصخور بروجاً فوق كيوان  
قد مر دهر عليها وهي ساخرة بما يضعضع من صرح وإيوان  
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من أركان نهلان  
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة تسعى اشتيافاً إلى ما خلد الفاني  
فصغرت كل موجود ضخامتها وغض بنيانها من كل بنيان  
وعاد منكر فضل القوم معترفاً يثني على القوم في سرّ وإعلان  
تلك الهياكل في الأمصار شاهدة بأنهم أهل سبق . أهل إمعان  
إذا أقام عليهم شاهداً حجر في هيكل قامت الأخرى ببرهان  
كأنما هي والأقوام خاشعة أمامها صحف من عالم ثاني .  
تستقبل العين في أثنائها صور نصيحة الرمن دارت حول جدران  
لو أنها أعطيت صوتاً لكان له صدى يروع صم الإنس والجنان  
وختمها بقوله :

أين الأولى سجوا في الصخر سيرتهم وصغروا كل ذي ملك وسلطان  
بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طي أخبار وأكفان  
وخلفوا بعمدهم حرباً مخلدة في الكون ما بين أحجار وأزمان  
وزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا عليهم العلم ذاك الجاهل الجاني  
ويل له هتك الأستار مقتحماً جلال أكرم آثار وأعيان  
للجهل أرجح منه في جهالته إذا هما وزنا يوماً بميزان

## إلى شوقي في منفاه

وكان على ود صميم مع شوقي ، وحينما نفي شوقي من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به ، وكان شوقي قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ بيتين من قصيدة له مشهورة<sup>(١)</sup> قال فيهما :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا      بعد الهدوء ويهيم من مآقينا<sup>(٢)</sup>  
لما تفرق في دمع السماء دماً      هاج البكا فحضبنا الأرض باكينا !  
فأجابه صبرى بهذه الأبيات :

يا وامنض البرق كم نبهت من شجن      فى أضلع ذهلت عن دائها حيناً  
فالماء فى مقل ، والنار فى مهج      قد حار بينهما أمر المحبينا  
لولا تذكر أيام لنا سلفت      ما بات يبكى دما فى الحى باكينا  
يا آل ودى عودوا لا عدتمكم      وشاهدوا ويحكم فعل النوى فىنا  
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا      أزهار أندلس هبى بوادينا<sup>(٣)</sup>

وقد عاش اسماعيل صبرى كريم الخلق ، صادقا عيوفا ، أيا و فيا لوطنه وأصدقائه ، معتزا بكرامته ، صريحا محبا للحق ، بعيدا عن الزهو والخيلاء ، وظل على هذه الأخلاق الفاضلة إلى أن توفى فى ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل ، وخلف كنوزا من الشعر والوطنية ، والفضائل النفسية ، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود .

(١) سيرد ذكرها فى الحديث عن شوقي .

(٢) يريد شوقي أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار جوانحه وتحيل أن ما يهيم به البرق من المطر

مشتق من دموعه .

(٣) يخاطب صبرى نسمة الأندلس التى عطرتهما أزهاره ويعيش فى جوها شوقي ويناجيها أن تهب عليه فى